أبو القاسم سعد الله
و نصف قرن في صحبة الأمير عبد القادر

الاستاذ الدكتور / لونيسي براهيم
جامعة جيلالي ليابس – سيدي بلعباس –

يعد الأمير عبد القادر من الشخصيات الجزائرية المتميزة في التاريخ الجزائري العسكري والسياسي والثقافي والفكري، ويبدو أنّ هذا التميز هو الذي دفع بالأستاذ سعد الله إلى الاهتمام بشكل خاص بهذه الشخصية لمدّة تزيد عن نصف قرن، وكانت الارهاصات الأولى لبداية هذا الاهتمام، عندما خصص له فقرة كاملة في أطروحته للدكتوراه التي ناقشها يوم 20 سبتمبر 1965 بجامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية والتي تولى بنفسه بعد ذلك ترجمتها إلى اللغة العربية وصدرت عن دار الآداب ببيروت سنة 1969، والفقرة المخصصة للأمير عبد القادر في هذا الكتاب – الأطروحة- هي الفقرة الثالثة من الفصل الأول الواقعة بين صفحتين 40 و49 وصولا إلى آخر ما كتبه ونشره عنه، وهي دراسته الموسومة "هل كان الأمير عبد القادر حداثيا؟" المنشورة في كتابه (حصاد الخريف) بين صفحتي 95 و106 والتي كتبها خلال شهر أكتوبر 2008، وهي في الأصل محاضرة ألقاها في الملتقى الدولي الذي نظم بمدينة وهران عن الأمير عبد القادر يوم 29 نوفمبر 2008 وبين هذين العملين كانت للأستاذ سعد الله صولات وجولات من بحوث ودراسات ومقالات بشأن الأمير عبد القادر.

إنّ السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه هنا، لماذا لم يخصص الأستاذ سعد الله كتابا مستقلا لهذه الشخصية مثل ما فعله مع بعض الشخصيات كابن العنابي وابن حمادوش وعبد الكريم بن الفكون والشاذلي القسنطيني؟ هل لأنّ الأستاذ سعد الله بعد أن أخذ يتعمق في دراسته لهذه الشخصية، ويتبحر في مختلف جوانبها اكتشف أنّ مثل هذه الشخصية لا يجب أن تسجن في كتاب واحد بل يجب أن تعيش حرّة طليقة. تنتقل بين صفحات كتبه المختلفة؟ ربما يكون ذلك هو السر؟ وإن كان قد ذكر في الجزء الثالث من يومياته (مسار قلم) في الصفحة 278 و279 "انتهيت من كتاب (حياة الأمير عبد القادر) وقد وضعت له مقدمة طويلة وتعاليق ضافية اتعبتني كثيرا، وكم ندمت على ترجمته وتمنيت بدل ذلك وضع كتاب عن حياته بقلمي الخاص". والأستاذ سعد الله كتب هذا الكلام بتاريخ 24 نوفمبر

1971، والسؤال الذي ينبغي طرحه هنا: هل بقي الأستاذ سعد الله نادما على أنّه قدم للقارئ الجزائري خصوصا وللقارئ العربي عموما هذا الكتاب الرائع مترجما إلى اللغة العربية من اللغة الانجليزية؟ أم أنّ ذلك الندم كان موقفا آنيا وظرفيا لا أكثر ولا أقل، جاء كنتيجة للتعب الذي شعر به عند انتهائه من عملية الترجمة، وبالتالي رأى أنّه لو استغل المجهود الذي بذله في عملية الترجمة في تأليف كتاب عن الأمير عبد القادر من صلبه كان أفضل وأحسن؟

وهل ظلّ نادما أيضا على ذلك بعد كلّ الذي كتبه عن الأمير عبر مختلف العقود من بدايات السبعينات وصولا إلى نهايات العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. والذي لو تمّ تجميعه في كتاب مستقل لنتج لدينا مجلدا ضخما لن تقل عدد صفحاته عن خمسمائة صفحة.

ويبدو أنّ الأستاذ سعد الله قد زال عنه هذا الندم مع قيامه بتقديم هذا الكتاب إلى المطابع ليطبع للمرة الثالثة حيث كتب في مقدمة هذه الطبعة التي كتبها بتاريخ 5 ماي 1992 وتحديدا في الفقرة الأخيرة منها، حيث اعتبر إعادة طبع الكتاب بعد مرور حوالي عشرين سنة أنّها عملية لها أكثر من معنى خاصة وأنّ الكتاب قد نفذ من السوق الجزائرية تماما سنة 1983 "إنّ إعادة طبع هذا الكتاب الآن له أكثر من معنى، فقد نفذ منذ 1983 وبقي حوالي عشرين سنة ينتظر من يقدمه من جديد لرعيل الشباب المثقف والمتطلع إلى معرفة حياة بطل المقاومة الوطنية ومؤسس أول دولة إسلامية جزائرية في العصر الحديث، دولة قائمة على حب الوطن وحب الإسلام، وتمجيد التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، دولة استمدت أصولها من تجربة الخلفاء الراشدين، ومن سيرة الصحابة والتابعين، ثم من تجارب الأمم المعاصرة لها كتجارب الأوروبيين أنفسهم في التسليح والتصنيع، والأخذ بأسباب القوّة والمغالبة في العلم والنظام والاقتصاد. وما أحوج شبابنا اليوم إلى العودة إلى هذا النموذج الوطني للدراسة والتأمل والاحتذاء، فالأمير عبد القادر قد انتقل من الجزائر إلى العالم، ولم ينتقل من العالم إلى الجزائر، وعلى هذا الدرب سار خلفه عبد الحميد بن باديس، ذلك الرجل العظيم الآخر، حين قال وعمل على خدمة الإنسانية بخدمته لوطنه الصغير أو لا"[1].

ولكن إذا اعتبرنا اهتمام الأستاذ سعد الله بشخصية الأمير عبد القادر يعود فقط إلى تميزها، نكون مجحفين في حق هذا المؤرخ العملاق الذي لم يكن يهتم ببعض الشخصيات أو الأحداث ويعمل على

[1] أبو القاسم سعد الله، مترجم حياة الأمير عبد القادر (دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان 2009)، ص: 21.

إبرازها وتحليلها ودراستها لتميزها فقط عن غيرها، لأن الأستاذ سعد الله في كل ذلك كان يسير وفق خطة ممنهجة ومرسومة بدقة لتحقيق جملة من الأهداف المسطرة في ذهنه مسبقا.

إن البداية الفعلية لاهتمام الأستاذ سعد الله الخاص بشخصية الأمير عبد الأمير عبد القادر كانت تحديدا يوم 28 أوت 1968 عندما عثر على كتاب الكولونيل شارلز هنري تشرشل عن الأمير عبد القادر بالانكليزية في فهرس الجزائر بدار الكتب المصرية بالقاهرة، وقرر تصويره وأخذه معه وهو يمني نفسه بترجمته إلى اللغة العربية، إذ كتب في الجزء الثالث من يومياته (مسار قلم) تحت تاريخ 28 أوت 1968 "... ذهبت إلى دار الكتب فاطلعت على فهرس الجزائر، فهرس طيب ولكنه ناقص جدا كنت أظن أنه أفضل من ذلك، وجدت فيه بعض الكتب الجديدة منها كتاب الكولونيل تشرشل عن الأمير عبد القادر (بالانكليزية)، اتخذت الإجراءات لتصويره في المكتبة وأخذه معي، أرجوا أن أوفق إلى ترجمته" ولكن ينبغي أن نشير هنا إلى أنه بالرجوع إلى مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب –أي حياة الأمير عبد القادر– نجده يكتب كلاما آخر غير هذا حيث كتب يقول في الصفحة 26 "وتعود صلتي بهذا الكتاب إلى عدة سنوات مضت عندما كنت أعد رسالتي للدكتوراه، وقد عزمت منذئذ على نقله إلى العربية لاقتناعي بأهميته" ولكنه كتب في الهامش أنه شرع في ترجمة الكتاب سنة 1969، وهو أمر مؤكد من خلال يومياته (مسار قلم) حيث كتب في الجزء الثالث تحت تاريخ 15 جانفي 1969" أترجم الآن كتاب الكولونيل تشرشل عن الأمير عبد القادر. "ولم يكمل الأستاذ سعد الله عملية ترجمة الكتاب إلا خلال شهر ماي 1971 حيث كتب في يومياته تحت تاريخ 7 جوان 1971:" انتهيت منذ أسبوعين من ترجمة حياة الأمير عبد القادر لتشرشل ... "وهذا معناه أن الأستاذ سعد الله عاش مع الأمير عبد القادر عند قيامه بترجمة هذا الكتاب لحوالي ثلاث سنوات كاملة، وهذا من شأنه أن يخلق نوعا من العلاقة الحميمية بين الأستاذ سعد الله والأمير عبد القادر ومن هنا كانت بداية قصة العلاقة الطويلة بين الأستاذ سعد الله والأمير عبد القادر.

ولقد قرر الأستاذ سعد الله عدم تقديم الكتاب المترجم إلى المطبعة لطبعه ونشره إلا بعد أن يزور مدينة معسكر مسقط رأس الأمير وهو ما كتبه الأستاذ في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب التي كتبها في مدينة معسكر يوم الجمعة 13 أوت 1971 "قبل كتابة هذه المقدمة رأيت من الضروري زيارة الأماكن التي جرت فيها أحداث الكتاب لذلك توجهت إلى مدينة معسكر، عاصمة الأمير، وأقمت فيها عدة أيام، زرت خلالها مسقط رأس الأمير في القيطنة على ضفة وادي الحمام وفي سفح جبل سطانبول حيث مرتع صباه ومغنى شبابه، ثم زرت ضريح والده محي الدين وجده سيدي قادة في (كاشرو) التي أصبحت تعرف اليوم

سيدي قادة، كما زرت...شجرة المبايعة الأولى في فروحة، وجامع المبايعة الثانية الذي كان يعرف بجامع سيدي الحسن...والجامع الكبير ...والواقع أن هذه الزيارة ضرورية لأكثر من سبب،فنقل الكتاب من لغة أجنبية إلى العربية يستلزم إعادة كثير من الألفاظ والمصطلحات إلى أصلها العربي نطقا وكتابة..."[1].

وعندما قرأنا هذا الكلام في هذه المقدمة لم نتخيل أبدا، بل ولم تخطر على أذهاننا تلك الصعوبات الكثيرة التي عاناها الأستاذ سعد الله خلال هذه المرحلة التي قادته من مدينة الجزائر العاصمة إلى مدينة معسكر، خلال شهر أوت الذي يعد أشد شهور السنة حرارة، ولقد بقي أمر هذه المصاعب سرا على أغلبية القراء المتتبعين لنشاطات الأستاذ سعد الله إلى غاية صدور الجزء الثالث من يومياته مسار قلم عن دار عالم المعرفة بالجزائر سنة 2009، حيث قرأنا فيه عن هذه المصاعب والمشاكل الكثيرة عندما قدم لنا وصفا وافيا لهذه الرحلة منذ بدايتها يوم 18 أوت 1971، إلى غاية رجوعه إلى مدينة الجزائر العاصمة بعد كتابته لمقدمة الكتاب وذلك يوم 14 أوت 1971، وكان قد أنهى كتابة لمقدمة ظهر يوم 13 أوت "قد انتهيت من تسويد مقدمة ترجمتي لكتاب تشرشل عن الأمير، وقد جاءت من عشرين صفحة، وهي المقدمة التي جنت من أجلها، والتي كانت عبئا على أكتافي منذ وقت طويل أي منذ انتهيت من الترجمة".

وكتب يقول عن نهاية هذه الرحلة بتاريخ 19 سبتمبر 1971 "عدت من معسكر في الرابع عشر من أغسطس فكانت الرحلة غير ممتعة، فالحر شديد، وقد انتهت بحرق أصابعي حيث اشتعلت النار في بطارية السيارة وحاولت إطفاءها".

وربما يتساءل البعض ويقول أمن أجل التدقيق في بعض الأسماء تحمل مشاق وعناء التنقل إلى مدينة معسكر خلال أشد الشهور حرارة في السنة، بل وأظن أن البعض سيستغرب من ذلك ويتعجب، ولكن الذي يعرف الأستاذ سعد الله معرفة حقة يعتبر ذلك أمرا عاديا بالنسبة له، وهذا لما عرف عنه من التدقيق والتمحيص في كل شيء وهي العادة التي كان يحرص دائما على نقلها لطلبته، ولتأكيد هذا الأمر سأحاول الاستطراد هنا قليلا لأذكر ما فعله خلال سنة 2008 عندما كان يحضر لانجاز كتابه الرائع عن إحدى الشخصيات الفكرية الجزائرية وهو نور الدين عبد القادر حيث قام الأستاذ سعد الله بتنقلات عديدة رغم متاعبه ومشاكله الصحية التي كان يعاني منها، حيث ذهب إلى البيت الذي كان يسكنه نور الدين عبد القادر في باب الواد بالجزائر العاصمة، كما توجه أيضا إلى المكتب الذي تسجل فيه أسماء الموتى وأعمارهم وتاريخ وفاتهم في مقبرة القطار المطلة على باب الواد "والذي يعرف هذه الجهة من

[1] نفسه، ص: 25.

العاصمة يعرف أن صعود الجبل إلى المقبرة ليس سهلا على مثلي فالطريق إلى البيرو يمتد عبر منعرجات بين القبور، فهو أحيانا يقودك إلى طرف المقبرة من جهة اليمين، ثم يعيدك إلى طرف المقبرة من جهة اليسار، ولكنك تظل في صعود دائم، وكلما بدا لك البيرو قريبا منك تزداد بعدا منه لكثرة المنعرجات، وأخير وصلت إلى ضالتي وهو البيرو ولكنني لم أرجع منه سوى بتاريخ وفاة نور الدين عبد القادر وعمره عند الوفاة"[1]، ومن خلال هذا المثال نلاحظ مدى حرص الأستاذ سعد الله على التدقيق في الأمور والمعلومات، وكان يقوم بذلك بنفسه رغم وجود إمكانية تكليف أحد المقربين منه إليه للقيام بهذه المهمة.

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى قصة الرحلة، فالمتمعن جيدا في أمرها سيكتشف أن هناك سرا خفيا وراء هذه الزيارة التي قام بها الأستاذ سعد الله إلى معسكر مسقط رأس الأمير ومرتع صباه ومدينة منشأه وشبابه، فلم يكن السبب هو عملية التدقيق في الأسماء والتأكد من صحة نطقها وكتابتها فقط، بل أيضا الرغبة الجامحة في استنشاق عبق ورائحة الأمير عبد القادر في المكان الذي ولد فيه، وفي ربوع منطقة معسكر التي صال وجال فيها الأمير كثيرا، إذ عاش فيها نصف حياته متنقلا بين ربوعها طفلا صغيرا يلعب مع أقرانه، ويتلقى المبادئ الأولى للقراءة ويحفظ القرآن وشابا يافعا يجالس والده الشيخ محي الدين بين أعيان المدينة ثم أميرا على سكانها بعد مبايعته من قومه، أميرا عليهم لقيادتهم ضد الاحتلال الفرنسي وما قيام الأستاذ سعد الله بأخذ عرف صغير من شجرة (الدردارة) التي بويع تحتها الأمير إلا دليل على ما أقول، وهذا ليكون كل ذلك عونا له ومفجرا لملكاته الفكرية لكتابة مقدمة الكتاب التي كانت عبئا ثقيلا على كاهله منذ ماي 1971.

لقد ذكرنا من قبل أن الأستاذ سعد الله في اهتمامه ببعض الشخصيات والأحداث التاريخية كان ذلك وفق خطة ممنهجية مرسومة، لأن المعروف عنه لا يخط كلمة أو جملة إلا ونجد من وراءها هدفا مرسوما، والهدف المرسوم من خلال اهتمامه بشخصية الأمير عبد القادر يتمثل أساسا في سعيه الحثيث إلى إثبات أن الأمير عبد القادر لم يكن مجرد بطل مقاومة ولكنّه كان بالإضافة إلى ذلك رمز حضارة وصوت تاريخ، وعندما نقرأ بتمعن وتفحص كل ما كتبه الأستاذ سعد الله عن الأمير عبد القادر نجده بصبّ في هذا الوعاء، وعاء إثبات أن الأمير عبد القادر فعلا لم يكن مجرد بطل مقاومة، بل كان أيضا رمز حضارة وصوت تاريخ، بل والأكثر من ذلك يقول الأستاذ سعد الله أن اسم والنضال القديم للأمير

[1] أبو القاسم سعد الله: باحث مغمور–نور الدين عبد القادر– 1890–1981 (منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر 2009)، ص: 6-7.

عبد القادر ومواقفه —سواء أراد الأمير ذلك أو لم يرد– قد ظلت موردا ينهل منه المقاومون الجزائريون، كما ظلت قوة معنوية تحفز إرادتهم وتساعدهم على شق الطريق[1].

ولقد عمل الأستاذ سعد الله على توضيح كل ذلك وتقديمه للقارئ الجزائري خصوصا والعربي عموما في كلّ ما كتبه عن الأمير عبد القادر في مختلف بحوثه ودراساته التي تناول فيها بالحديث شخصية الأمير عبد القادر، أو من خلال حديثه عن بعض الشخصيات المنتمية لأسرة الأمير عبد القادر وبعض الرجالات التي كانت واقفة إلى جانبه سواء في مقاومته للاستعمار الفرنسي، أو خلال سجنه في فرنسا، أو بعد نفيه إلى بلاد الشام.

ولقد حاول الأستاذ سعد الله أن يلخص كل هذا في عدة مواضع من مقدمة الطبعة الأولى لكتاب (حياة الأمير عبد القادر) لتشرشل فمثلا كتب في الصفحة 36 يقول "إن الطابع الأسطوري لظهور الأمير بدأ منذ نعومة أظفاره فقد كانت تظهر عليه علامات خاصة عن جميع إخوته، فجعلت والده يوجه له عناية خاصة ويؤثره على غيره، وقد ظهرت هذه العناية في الثقافة والتوجيه، وكان محي الدين يراقبه عن كتب ويتوسم فيه علامات غامضة ... ثم أن نبوغ الأمير العلمي دون إخوته واهتمامه بالفروسية وزواجه المبكر كلها عناصر هامة في نضج الأسطورة".

ويقول عنه في موضع آخر من الكتاب نفسه في الصفحة 37 "إن الدارس لحياة الأمير يصادف الجواب على هذا السؤال: هل كان الأمير رجل دين أو رجل دولة أو كان هما معا؟ وقد أجاب الكثيرون، كل حسب ما تهيأ له ... إن بعضهم يعتبر الأمير في كل تحركاته مدفوعا بعامل ديني قوي، وأن الظروف والأحداث فقط هي التي أجبرته على الدخول في الحركة ضد الفرنسيين، وان دوره الحقيقي لم يكن إقامة دولة بل العبادة والتجرد والبعد عن هذا العالم، وهم يستدلون على ذلك بعدة أقوال ينسبونها إلى الأمير، ولكن من الذي يستطع أن يحدد دوره ويرسم مصيره قبل أن يولد وحتى بعد أن يولد؟".

ولكن الأستاذ سعد الله وبلفتة ذكية جدا ومدروسة بإحكام يستدرك كل ذلك ويحاول أن يقنع القارئ أن الأمير عبد القادر ليس برجل دين فقط، إنّما هو رجل دولة ومن الطراز الرفيع أيضا عندما يقول في الصفحة نفسها أن الأمير عبد القادر الذي ولد في بيئة دينية محافظة أثناء فترة جمود عقلي، واستبداد سياسي في بلاده، والذي لم يعد يجد حريته حتى الشخصية إلا في أحضان وادي الحمام وغابات كاشرو وخلوة جده سيدي قادة "سرعان ما أدرك أن دوره، بعد أن أمسك بزمام السلطة، هو بناء دولة عصرية

[1] أبو القاسم سعد الله: حياة الأمير عبد القادر، ص: 49.

تقوم على جيش منظم وإدارة محكمة وعادلة، ونظام ضريبي دقيق، وإقامة صارمة للعدل وتأسيس مراكز للتعليم على نحو جديد، وربط علاقات متفهمة بالعالم الخارجي ... واستيعاب وفهم عميق لروح الدين وحاجات العصر ... وقطع الصلة بالإدارة العثمانية وبقاياها ونظمها ... واستعان بالأجانب في الأمور التي عجز عنها مواطنوه ولعله من الواضح أن رجلا يفكر ويخطط على تحقيق هذه المشاريع ليس بالرجل الناسك في إحدى الزوايا المهجورة، ولا نظن أن هذه المشاريع قد فارقت رأس الأمير نهائيا بعد 1847، إن كثيرا من أقواله وتصرفاته تظهر أن الرجل كان يعيش عصره ويفكر كرجل دولة".

ويذكر في موضع آخر من المقدمة ذاتها وتحديدا في الصفحة 46 أن الأمير عبد القادر لم يكن أبدا من المعارضين لعملية التقدم والتحضر، ولم يمانع في الأخذ بالحضارة الأوربية بشرط أن لا يتعارض ذلك مع مبادئه "فقد ألزم جيشه بالنظام الأوربي المحكم حين عزم على تكوين جيش عصري، وانتدب بعض المدربين الأجانب للقيام بهذه المهمة ... وسك النقود ونحوها، واستعمل عليها بعض الخبراء الأوربيين في تسييرها ... ولعل النظام الإداري التصاعدي الذي سنه، ضاربا صفحا عن النظام الإداري العثماني الذي كان قبله، يكشف عن تفهمه لحاجة قومه لنظام يكفل لهم الارتقاء من عهد الإقطاع والقبلية إلى عهد التعايش الاجتماعي والالتزام نحو بعضهم ونحو الدولة".

وعاد الأستاذ سعد الله بعد عشرين سنة من طرحه لذلك السؤال –أي هل الأمير عبد القادر كان رجل دين أو رجل دولة؟ وكان هما معا؟– ليقدم له أجوبة أخرى، وكذا إضافات جديدة لما كان قد ذكره في مقدمة الطبعة الأولى، وذلك من خلال ما أسماه الطبعة الثالثة لكتاب (حياة الأمير عبد القادر) الذي ترجمه عن اللغة الانجليزية وهي المقدمة التي كتبها في 5 ماي 1992، إذ أوضح في المقدمة الجديدة بشكل خاص طبيعة رجل الدولة التي كان يتصف بها الأمير عبد القادر الذي كان رافضا أن تكون دولته طبعة ثانية لدولة سلطان المغرب، أو سلطان آل عثمان وشاه إيران وملك أفغانستان ثم ولاة من أمثال باي تونس وباشا مصر وإمام اليمن، وبالتالي فان الأمير رفض أن يكون كحاكم يشبه أحد هؤلاء "لأنهم كانوا جميعا مستبدين وهو أبعد ما يكون عن الاستبداد، هل لأنهم كانوا بعيدين عن تنفيذ الشريعة الإسلامية، وهو أحرص ما يكون على تنفيذها؟ هل لتغلغل العملاء الأجانب في دولهم بينما لم يكن هو قد انغمس في حماة النفوذ الأجنبي؟"يقول الأستاذ سعد الله "ليس لدينا الجواب الشافي على هذه الأسئلة، وإنما نحن نرجح أن الأمير اختار نموذجا جديدا يؤصل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في سطعته الأولى"[1].

[1] نفسه، ص: 6-7.

ومن أبرز النقاط التي ركز عليها الأستاذ سعد الله في حديثه عن الأمير كرجل دولة قوله أن الأمير عبد القادر سيطرت على سيرته فكرة الوطنية التي حاول من خلالها بعث الروح المعادية للسلطة الأجنبية التي احتلت البلاد، وإثارة الناس بخطاب تتردد فيه عبارات: "بلادكم، أرضكم، دينكم ..." والإشارة إلى هذا العدو على أنّه يريد أن يغل الأعناق، وأن يعتدي على الشرف، والتوجه إلى كل القبائل وكل الزوايا وكل الجهات "فقد تجاوز خطابه بني فلان، وبني فلان إلى الشعب، إلى المواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماؤهم القبلي أو الصوفي أو الجهوي، وربما لم تعرف الجزائر قائدا من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل ...، ... لقد كان الأمير يتحرك كرجل دولة إسلامية—وطنية لا كرجل طريقة أو جهة أو قبيلة"[1].

ومن أبرز صفات رجل الدولة أن يكون صاحب نظرة ثاقبة للأمور والأحداث وكذا ببعد النظر، والقدرة على استقراء تطورات الأحداث، والأستاذ سعد الله يقول إن كل هذه الصفات موجودة في شخصية الأمير عبد القادر ويظهر كل ذلك في الإيمان القوي والراسخ لدى الأمير عبد القادر من أن بقاء الفرنسيين في الجزائر إنما هو بقاء السحابة الصيفية، وفي رفضه القاطع الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر في كلّ المواثيق والمراسلات "وكان على يقين أن موجة التاريخ وإن تصاعدت مع الفرنسيين في عهده، فإنها ستنحصر وتتراجع لا محالة وتنكشف بعد ذلك عن فضائع ارتكبت في حق الإنسانية تحت عطاء الموجة العاتية، لنقرأ نبؤته التي كتبها في رسالة منه إلى بوجو سنة 1841: (إنّ فرنسا ستمضي وسنتراجع نحن، ولكنها بدورها ستضطر إلى التراجع، وعندئذ سنعود) وقد شبه الأمير مقاومته وهي في عنفوانها بالموجة التي لا تتأثر بلمسة من جناح طائر: (هل تتوقف الموجة عن الصعود والتضخم عندما يلامسها جناح طائر أثناء طيرانه السريع؟ تلك هي صورة مروركم بإفريقيا–الجزائر–)[2].

إن أبرز ما يمكن لنا استنتاجه من كل هذا أن الأمير عبد القادر كان يعيش بعقلية مستقبلية بشروعه في التخطيط لبناء دولة جزائرية حديثة مستقلة بجيش قوي وإدارة محكمة وهو كل هذا يعتمد على الشرعية الشعبية التي تحصل عليها بعد مبايعته في 22 نوفمبر 1832 كأمير، الأمر الذي دفعه إلى العمل على إخراج مقاومته من النطاق الضيق المتمثل في الغرب الجزائري إلى مجال أرحب وأوسع ليشمل أجزاء كبيرة من التراب الجزائري، وفي المقابل العمل على حصر النفوذ الفرنسي في السواحل حول مدن الجزائر وعنابة ووهران ومستغانم وأرزيو، والأمير عبد القادر في كل هذا يختلف تماما عن أحمد باي الذي عاصره

[1] نفسه، ص: 9.

[2] نفسه، ص: 11.

وحاول إعادة بعث الدولة الجزائرية من جديد من مدينة قسنطينة مركز إقليم بايلك الشرق، بعد انهيار الحكومة المركزية بالجزائر العاصمة بقيادة الداي حسين في 5 جويلية 1830، وذلك بالاعتماد على شرعية تاريخية واهية وضعيفة اكتسبها بفعل تعيينه من الداي حسين بايا علي بيليك الشرق الجزائري سنة 1826، والذي كان همه الوحيد هو إعادة ربط الجزائر بالدولة العثمانية من جديد وأن يصبح رجلها الأول في الجزائر، والإبقاء على الأوضاع التي كانت سائدة في الجزائر قبل 1830.

وعلى ذكر أحمد باي هنا سنحاول أن نبرز نظرة الأستاذ سعد الله لهذا الرجل الذي عاصر الأمير وقاد مثله مقاومة في الشرق الجزائري، ويمكن القول أن الأستاذ سعد الله بعد من المؤرخين الجزائريين الأوائل الذي سعوا إلى نفض الغبار على هذا القائد وذلك في كتابه "تاريخ الجزائر الحديث –بداية الاحتلال– الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1970 أي خلال الفترة التي كان يقوم فيها بترجمة كتاب (حياة الأمير عبد القادر). والمتصفح لهذا الكتاب الذي أعاد طبعة سنة 1976 تحت عنوان (محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث –بداية الاحتلال–) بعد أن لاحظ أن العنوان الذي صدر به الكتاب في الطبعة الأولى أكبر من حجمه، ولكن دون أن يعدل فيه الكثير، قلت أن المتصفح لهذا الكتاب للوهلة الأولى بدون شك سيلاحظ خلوه من أي فصل خاص بمقاومة الأمير عبد القادر، وبالتالي من حق هذا المتصفح أن يتساءل عن السبب الذي منع الأستاذ سعد الله عن الحديث عن الأمير عبد القادر ومقاومته للاحتلال الفرنسي، وهذا في الوقت الذي خصص لأحمد باي ومقاومته فصلا كاملا رغم تزامن المقاومتين، بل والأكثر من ذلك كانت بين الرجلين العديد من نقاط التماس بل وحتى نقاط تقاطع في بعض الأحداث، وأخطر نقاط التقاطع هاته ما يعرف باسم معاهدة التافنة الموقعة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو الذي كان حاكما عسكريا على عمالة وهران وذلك سنة 1837.

لقد خصص الأستاذ سعد الله لأحمد باي في هذا الكتاب فصلا كاملا هو الفصل الثامن المحصور بين صفحتي 133-147، والإجابة على هذا السؤال صعبة جدا، فهل الأستاذ سعد الله أراد أن يحدث توازنا بين حديثه عن الرجلين بين هذا الكتاب، وكذلك أطروحته للدكتوراه التي أصبحت تحتل الجزء الثالث ضمن كتابه (الحركة الوطنية الجزائرية بأجزائه الأربع) التي خصص فيها للأمير عبد القادر حيزا معتبرا وهو الفقرة الثالثة من الفصل الأول الواقعة بين صفحتي 40 و49 في حين أنه لم يذكر أحمد باي فيه سوى خمس مرات فقط في الصفحات 43 و48 و49 و50، ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن الأستاذ سعد الله قد ذكر الأمير عبد القادر في كتابه (تاريخ الجزائر الحديث بدايات الاحتلال) سبعة عشرة مرة، وذكر

عنه معلومات في غاية من الأهمية لم نجد لها أي ذكر في أطروحته للدكتوراه مثل قوله عنه في الصفحة 146: "... كان هدفه –أي أحمد باي– إقامة دولة تفرض الأمن والاستقرار، والدولة في نظره كانت وسيلة للسلطة، وهو هنا يخالف الأمير عبد القادر الذي حاول إقامة سلطته على الجهاد وتأييد الطبقة الأرستقراطية والطرق الدينية، والحاج أحمد باي بخلاف الأمير، لم يحاول أن يوسع سلطانه حتى يشمل الجزائر كلها، كان مكتفيا، سواء في مفاوضاته مع الفرنسيين أو في مراسلاته مع السلطان العثماني، بحدود إقليمه قسنطينة، ولسنا ندري ماذا سيكون موقفه لو أنه نجح في خطته واستقر حكمه، ولكن الوثائق التي بين يدينا تدل على أنه كان يحارب من أجل سلطة محلية ... لم يتفق الحاج أحمد باي مع الأمير عبد القادر الذي كان يرى فيه دعيا متطاولا على السلطة مستعملا الدين كوسيلة للوصول إلى الحكم، وزاد من شك الحاج أحمد في الأمير أن هذا قد وقع اتفاقات مع الفرنسيين ... والواقع أن معاهدة التافنة التي جاءت بعد فشل المحاولة الأولى لاحتلال قسنطينة 1836 كانت مساعدة على نجاح الفرنسيين في المحاولة الثانية، فقد اطلقت أيديهم في شرق البلاد".

إنّ كل هذا سيجرنا إلى طرح سؤال آخر في غاية من الأهمية: لماذا لم يول الأستاذ سعد الله لأحمد باي الاهتمام الكبير الذي أولاه للأمير عبد القادر، فالأستاذ سعد الله لم يكتب الشيء الكثير عن أحمد باي ومقاومته للاستعمار الفرنسي، وهذا في جل كتبه، على عكس ما فعله مع الأمير عبد القادر؟ فهل يعود ذلك إلى أن الأستاذ سعد الله قد أخذ موقفا معينا من أحمد باي وهو ذلك الذي يذكره في الصفحة 49 من أطروحته للدكتوراه: "ولما كان أحمد باي ينتمي إلى الإدارة القديمة، فقد أعلن نفسه الوارث الشرعي للداي المخلوع وطلب من الخليفة الإسلامي في اسطنبول الاعتراف به، ولكن الباب العالي، الذي كان مشغولا بتصفية جنود الانكشارية وحروب محمد علي، لم يمنح أحمد باي أكثر من التأييد المعنوي ولقب باشا، ومع ذلك فإن أحمد باي قد واصل الحرب ضد الفرنسيين باسم الإسلام والخلافة . ومن أجل ذلك، بل لعلّ من أجل أشياء آخر، لا يعتبر كثير من الجزائريين، وأكثر المؤرخين، أحمد باي بطلا (وطنيا، رغم قدرته الإدارية وشجاعته الحربية وقيادته النيرة، فقد تمتعت قسنطينة في عهده بإدارة مستقرة واقتصاد متقدم وحياة ثقافية طيبة ... ولكنّ أحمد باي كان يريد أن يحكم وحده، وهكذا منعت الغير، والصراع من أجل الحكم، بالإضافة إلى سياسة الفرنسيين التي كانت تقوم على فرق تسد، تحالفا بين قوى الأمير عبد القادر وأحمد باي، رغم بعض المحاولات من طرف الأمير" مع العلم أن الأستاذ سعد الله قد طرح بشأن هذا الرجل جملة من الأسئلة الهامة جدا في تلك الكلمة التي كتبها في بدايات السبعينات لتكون تصديرا

لمذكرات أحمد باي التي قام الأستاذ العربي الزبيري بترجمتها رفقة مذكرة حمدان خوجة وأحمد بوضربة التي قدماها للجنة الإفريقية التي زارت الجزائر سنة 1833، إلا أن هذه الكلمة لم تصدر مع المذكرات المترجمة وإن نشرت لأول مرة سنة 1973 حيث صدرت عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، وقام الأستاذ سعد الله بنشر هذا التصدير ضمن الجزء الأول من (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) حيث يقول في الصفحة 352 بشأن أحمد باي على شكل تساؤلات: "... وقد اهتممنا منذ الاستقلال بشخصيات تاريخية كالأمير عبد القادر وابن باديس والمقراني والحداد، وظلت شخصية الحاج أحمد تكاد تكون مجهولة، رغم ما قام به من نضال، وما شاده من نظام، رغم مواقفه في سبيل الإسلام والخلافة، لماذا هذا الإهمال؟ هل لأن الحاج أحمد كان كرغليا؟ أو هل لأنه حارب الفرنسيين باسم الخلافة الإسلامية لا باسم الشعب الجزائري أي باسم الدين لا الوطنية؟ أو هل لأنه رفض التحالف مع الأمير عبد القادر؟ الجواب على هذه الأسئلة يحتاج إلى مجلد".

ولقد حاول الأستاذ سعد الله الإجابة على بعض هذه الأسئلة بعد مرور بضع سنوات من طرحها إلا أن إجاباته على هذه الأسئلة لم تخرج عن إطار ما قاله عن أحمد باي سواء في أطروحته للدكتوراه أو في الكتاب الذي عنونه بمحاضرات في تاريخ الجزائر الحديث بدايات الاحتلال، إذ نجد الأستاذ سعد الله يكرر الكلام السابق بعد مرور بضع سنوات وإن كان ذلك بشكل وأسلوب مغاير ولكن مع الحفاظ على جوهر الفكرة في الجزء الأول من كتاب (الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1860) الذي صدرت طبيعته الأولى سنة 1992 وهذا في الصفحة 140 "ورغم أن الحاج أحمد كان أقرب العناصر التركية في الجزائر إلى الشعب فانه ظل وفيا للخلافة والسلطان العثماني، فلم يفكر في إعلان الاستقلال وتوحيد البلاد تحت شعار الوطنية، أو على الأقل لم يستقل استقلالا في درجة محمد علي والى مصر، نحو السلطان، لقد كان الوحيد الذي يملك التجربة والنظام والقوة سنة 1830".

ولقد أفصح الأستاذ سعد الله صراحة عن هذا الموقف المتمثل في الانحياز إلى جانب الأمير عبد القادر على حساب شخصية أحمد باي في الصفحة 158 من الجزء الأول من الحركة الوطنية الجزائرية حيث كتب يقول: "لقد كان الأولى بالحاج أحمد على الأقل بعد سقوطه، أن ينضم تحت لواء الأمير، أو يوصي من بقي له من أتباع بالانطواء تحت لوائه، إذا كان هو لا يستطيع ذلك، ولكننا وجدناه قد أخذته العزة بالإثم، فاستمر على ركوب رأسه في عدم الخضوع لابن محي الدين –كما كان يسمي هو الأمير– حتى سنة 1833، فهاهو يخبر وزيره السابق، على بن عيسى الذي عاونه على الدفاع عن قسنطينة، يخبره

أن الأمير قد وجه الرسائل إلى أعيان قسنطينة يطلب منهم الدخول في طاعته بعد احتلالها من الفرنسيين ... ومما قاله لابن عيسى أنه لن يخضع للأمير لأنه لن يستطيع في نظره أن يصبح (أميرا) بالفعل ولو وصل إلى السماء، لماذا؟ لأن الأمير عبد القادر في نظر الحاج أحمد ليس من سلالة تلد الأمراء! وقد وعد صاحبه بأنه إذا نشبت الحرب (وهو يتكلم أثناء سنة الهدنة –معاهدة التافنة–) فسيختار جانب الفرنسيين على جانب ابن محي الدين".

وهذا يدفعنا إلى القول أن الأستاذ سعد الله قد انحاز بشكل واضح إلى جانب الأمير عبد القادر الذي كان يعتبره رمزا للوطنية وذلك من خلال ما كتبه في أطروحته للدكتوراه في الصفحة 47 و48: "بعد سجل طويل من الحرب ضد الأمير قال عنه الجنرال دوفيفي سنة 1842 (إنّ القوة الحقيقية للأمير، تلك القوة التي تقاومنا، ترجع أصولها إلى فكرة ... أن عبد القادر كان أميرا، لأن الحرية قد منحته سلاحها ... لقد كان رجل التاريخ، إن الحرية لن تنساه أبدا، إنها سترتدد اسمه دائما)، أمّا اليوم فان اسم الأمير قد أطلق على ميادين، وشوارع، ومدارس ومنشآت عسكرية في بلاده، إن الجزائريين يعتبرونه (بطلا وطنيا) والحق أن هذا الاعتبار ليس خاصا بالجزائريين، إنّ كثيرا من المؤرخين الأوربيين ينظرون إلى الأمير عبد القادر على أنه زعيم الاستقلال والوطنية، والحرية في الجزائر ...".

ونجده بعد مرور عدة سنوات على هذا الكلام يعيد نفس هذه الفكرة ولكن بأسلوب وشكل مغاير في الجزء الأول من كتابه (الحركة الوطنية الجزائر 1830-1960) وذلك في الصفحة 173. "إنّ مقاومة الأمير تمثل عهدا بذاته في تاريخ الجزائر وتستحق كتابا، بل كتبا خاصة بها، وقد تناولها الكتاب فعلا، كل حسب دولته وميوله وعهوده، واشترك في ذلك كتاب مختلف القوميات والأديان والمذاهب ولا غرابة في ذلك فالرجل قد فرض نفسه على التاريخ، وفرضه التاريخ على الناس فأصبح حديثه ومحل إعجابهم، وتقديرهم حتى الذين حاربوا ضده أو لم يفهموه أول مرة"، وهي الفكرة التي سيقوم الأستاذ سعد الله بشرحها بشكل موسع ومعمق في الصفحات من 268 إلى 274 من الجزء نفسه من الحركة الوطنية الجزائرية "... إن الأمير كان باعث الوطنية الجزائرية، فقد وصل خطابه أعماق الشعب وحرك نداؤه ضمير الأرض، وهز صوته أركان الوطن فإذا بريح الوطنية تطوي المسافات وتجتاز الحدود القبلية والطرق الصوفية والإقليمية لتصبح شعلة واحدة تحرق وجه العدو الدخيل، لم يكن الجهاد وحده هو الذي جعل الناس يضحون ويتبعون راية الأمير، بل كانت هناك مشارع متأججة حبا في الأرض، وحبا للوطن التجديد الذي رسم حدوده الأمير وجعل عليه فضائه وخلفاءه وممثليه اعترف له العدو بحدوده ...". ونسجل هنا

أن الأستاذ سعد الله قد سبق له توضيح هذه الفكرة بشكل جيد قبل حوالي عشرين عاما في مقالة له عن الأمير عبد القادر وهي بعنوان (ميزات بارزة من حياة الأمير عبد القادر) في الجزء الأول من (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) حيث كتب في الصفحة 130: "ولا شك أن الوطنية قد تطورت بسرعة نتيجة تصرفات الأمير وهذا موقف لابد أن يذكر له، فهو الذي أخرج الوطنية من ميدان النظرية التي نادى بها (حمدان) خوجة مثلا إلى ميدان التطبيق، فالوطنية في مفهوم الأمير هي القوى المحاربة ضد العدو الأجنبي، وبفضله تدعم التفكير الوطني الجزائري، كما تدعم الفكر القومي العربي، فقد بذل الأمير جهوده في توحيد القبائل المتنافرة وكون منهم دولة حديثة، ودعا زعماء البلاد المعاصرين له إلى الوحدة الوطنية فكان هذا هو موقفه من الحاج أحمد باي قسنطينة ...".

ولقد اعتبر الأستاذ سعد الله الأمير عبد القادر موقظ الضمير الوطني الجزائري بأفعاله وأقواله طيلة عهد جهاده الذي بلغ سبعة عشر عاما "لقد كان هدفه الأساسي إيقاظ وإذكاء ذلك الضمير بجعله الجهاد في سبيل الله وسيلة، والوحدة الشعبية هدفا".

الأمير والحضارة الغربية.

لقد ذكرنا في فقرة سابقة أن الأستاذ سعد الله يقول أن الأمير عبد القادر كان متفتحا على الحضارة الغربية، ولم يكن يمانع في الأخذ بالجوانب التي لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية ومبادئها، وهذا كله ذكره الأستاذ سعد الله في مقدمة الترجمة الخاصة بكتاب (حياة الأمير عبد القادر) لتشرشل، ونشير هنا إلى أنه يذكر في موضع آخر في مقال له عن الأمير بعنوان (ميزات بارزة من حياة الأمير عبد القادر) في الجزء الأول من (أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر) وهي عبارة عن مقالة قدم لنا فيها جملة من المفاتيح الأساسية التي يمكن لنا من خلالها فهم بعض جوانب شخصية الأمير عبد القادر، ومن بين هذه المفاتيح ذلك الخاص بموقف الأمير من الحضارة الغربية المعاصرة وتحديد الميدان الثقافي منها، حيث يقول في الصفحة 131 "ولعل أعظم ما يميز الأمير كانسان وكوطني روحه التقدمية وحبه للنظام، فقد آمن إيمانا عميقا بضرورة تطوير وطنه، وكان يعرف مدى الهوة التي كانت تفصله عن التقدم الحضاري الذي كان العدو يتمتع به، وللخروج من ذلك كون الأمير جيشا حديثا سلحه بأحدث الأسلحة ووضع على رأسه مدربين عصريين في الغالب من الأجانب ...".

ويواصل في الصفحة نفسها موضحا هذا الجانب من جوانب شخصية الأمير عبد القادر قائلا أنه اشتهر بإعجابه الشديد بالتقدم الإنساني، وأخذه بأسباب الحضارة الحديثة "ويمكنا أن نقول بسهولة أنه

كان مجددا متسامحا فقد استعان بالأجانب، والمتعاونين كما نسميهم اليوم، لتطوير البلاد في النواحي إلى شعر بأن إمكانياته لا تمده بما يريد: كاستغلال المعادن، وضرب السكة وصناعة الأسلحة، والنسج، وتدريب الجيش ...".

ولكن بعد حوالي ربع قرن عن كل هذا الكلام الذي قاله الأستاذ سعد الله بشأن تفتح الأمير عبد القادر على الحضارة الغربية والقول بعدم ممانعة الأخذ ببعضها الذي لا يتناقض مع روح الشريعة الإسلامية ومبادئها، وجدنا الأستاذ سعد الله يكتب دراسة جد مركزة على هذه القضية بعنوان (هل كان الأمير عبد القادر حداثيا؟) وهي في الأصل محاضرة قدمها في الملتقى الدولي الذي انعقد بمدينة وهران في 29 نوفمبر 2008) وكان قد كتبها في أكتوبر 2008، وهي موجودة في كتابه (حصاد الخريف ص، ص: 95–106) والسؤال الجوهري الذي يواجه قارئ هذه الدراسة هو: هل كان الأمير عد القادر فعلا متفتحا على الحضارة الحديثة بشكل كبير؟ أم أن الانفتاح الذي تحدث عنه الأستاذ سعد الله في مقدمة ترجمة كتاب (حياة الأمير عبد القادر) وغيرها كان تفتحا جزئيا مقتصرا فقط على جانب معين من هذه الحضارة وهو الجانب العسكري لا غير وهذا على حد قول بير بروجر –مؤسس مكتبة الجزائر العمومية والذي زار الأمير عبد القادر في معسكره في الونوغة وهي الزيارة التي سجلها بروجر في كتاب له قام الأستاذ سعد الله بترجمته إلى اللغة العربية تحت عنوان (مع الأمير عبد القادر –رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة 1837-1838- حيث جاءت في الصفحة 87 من هذه الرحلة "... فقد تكلم إليه أحدنا عن الفوائد التي ستجنيها الأمتان إذا واصل الأمير إلى قيادة العرب إلى الحضارة الأوربية، فأجابه عبد القادر بأن هذه الفكرة لا تجول بخاطره وأن اليوم الذي يشك فيه قومه أنه يحملها فإنهم سيتخلفون عنه جميعا"، ويقول بروجر في الصفحة 188 إن الأمير عبد القادر قد استعار منا" بعض حضارتنا غير أن هذه الاستعارة وهي قليلة على كل حال لم تظهر في وقتنا الحاضر سوى في تنظيمه العسكري".

وبشكل عام فان الأستاذ سعد الله عاد إلى هذه القضية سنة 2008 بنوع من التفصيل في الدراسة التي سبق ذكرها والتي حاول من خلالها والإجابة على سؤال ضخم جدا، الإجابة عليه في الحقيقة تحتاج إلى صفحات، ولكن رغم ذلك فإن الأستاذ سعد الله حاول الإجابة عليه بشكل مختصر ومركزا في الوقت ذاته، حيث قام في البداية يطرح السؤال الجوهري: هل كان الأمير عبد القادر فعلا محافظا أو كان حداثيا؟ ولقد أشار قبل طرحه لهذا السؤال إلى أن الذين درسوا الأمير اختلفوا فيما بينهم حول قضية موقفه من الحضارة الغربية فهناك من قال عنه بأنه كان محافظا زاهدا ومتصوفا في جميع مراحل حياته، وهناك طرف

ثان قال عنه أن الأمير يأتي على رأس المصلحين في القرن التاسع عشر ويقول سعد الله إن الذين ذهبوا هذا المذهب هم "أولئك الذين تأثروا وحاولوا إدخال الحضارة الغربية إلى بلدانهم الإسلامية المختلفة"[1].

وللإجابة على السؤال السابق الذي طرحه الأستاذ سعد الله إجابة علمية منهجية حدثنا عن الأمير عبد القادر المحافظ ثم حدثنا عن الأمير حداثيا، ومن جملة ما قاله عن الأمير المحافظ أن الأمير كان ملزما عليه أن يظهر التمسك بتعاليم الدين الإسلامي أمام قومه حتى لا يفقد ثقتهم ويضيع هدفه معهم ويصبح في نظرهم (كافرا) نجب مقاومته لهذا كان إقناعه عن إرسال أي بعثة تعليمة إلى البلاد الأوربية كما فعل محمد علي باشا، ففضل أن يتعامل في عين المكان مع بعض خبراء السلاح من الأوربيين على أن يرسل بعثة من الشباب الجزائري ليتعلموا صناعة السلاح بأنفسهم.

ومن أبرز المظاهر التي تظهر الأمير رجلا محافظا حسب نظره الأستاذ سعد الله رفضه العيش في فرنسا عند إطلاق سراحه وتفضيله العيش في بيئة شرقية "عرفها وعرفته من قبل" ويقول أنه حتى عندما كان مقيما في السجن بفرنسا كان "ملتزما بإقامة الشعائر الدينية بكل تفاصيلها مع تطبيقها على أولاده وأهله، كما كان ملتزما بتدريسهم الفقه والتوحيد والسيرة النبوية ... بعد انتقاله إلى الشرق ... ازداد تعمقا في الدراسات الإسلامية: فجلس للتدريس في الجامع مع الأموي حيث ختم صحيح البخاري ... وأخذ الطريقة التقشبندية من شيخها خالد التقشبندي، وألف على ما يقال كتابا في التصوف (المواقف) ... وألف كتاب المقراض الحاد الذي رد فيه على الملحدين والمشكلين في مسايرة الإسلام لروح العصر ..."[2].

إن أبرز ما نستنتجه من خلال كل هذا هو مدى تمسك الأمير عبد القادر بالإسلام وشعائره ومبادئه بل وكان حريصا أيضا على نقل كل ذلك لأبنائه وأحفاده ... وكل هذا كان يتميز به الأمير عبد القادر سواء عندما كان هنا في الجزائر مجاهدا ومقاوما للاحتلال الفرنسي من جهة ووضع أسس ولبنات دولته الإسلامية الوطنية التي بناها على أسس إسلامي واضح قام على أساس العدل والمساواة.

أما بشأن كون الأمير عبد القادر حداثيا فقد عمد الأستاذ سعد الله على سرد بعض الأحداث والمواقف التي احتك فيها الأمير ببعض مظاهر الحضارة الغربية الحديثة وذلك من خلال علاقته الخاصة التي كانت تربطه مع الأسقف دوبوش، وكذا من خلال ذهابه إلى الحج مع والده سنة 1829 حيث نزلا من مدينة الإسكندرية التي كانت قد بدأت تعكس إصلاحات محمد علي باشا الذي أراد أن يجعل منها ميناء

---

[1] أبو القاسم سعد الله: حصاد الخريف (عالم المعرفة الجزائر 2010)، ص: 95.

[2] نفسه، ص: 98.

رئيسيا مفتوحا على أوروبا، كما يكون الأمير عبد القادر أيضا قد قرأ ما كتبه بعض كتاب عصره عن أحداث الثورة الفرنسية وبعض ما جاءت بها من تحولات، والمقصود هنا ما كتبه أحمد بن سحنون في الثغر الجماني عن ثورة الفرنسيين ضد نظامهم القديم، والتخلص من ملكهم وعن استعمالهم العنف الدموي في حربهم الأهلية، وانطلاقا من كل هذا سعى الأمير إلى بناء جيش نظامي على الطريقة الأوربية، وكذا تأسيس نظام إداري جديد لا عهد للبلاد به، وهو نظام شبيه بالنظام الإداري الأوربي.

وبعد قيام الأستاذ سعد الله باستعراض الأفكار المختلفة الخاصة بالأمير محافظا والأمير حداثيا وجدناه في الخاتمة ينتصر للأمير المحافظ على حساب الأمير الحداثي، الأمير المدافع عن الإسلام، الإسلام الصالح لكل عصر وأوان، الأمير المحافظ الذي كتب رسالة إلى الشيخ خير الدين باشا التونسي بشأن كتابه (**أقوام المسالك**) المطبوع سنة 1867، حيث مدح الشيخ خير الدين بأنه دافع على الإسلام بدل أن يمدحه بالدعوة إلى التجديد، وبأنه دعا إلى تقليد أوروبا فقط فيما ليس له علاقة بالشريعة الإسلامية يقول الأمير في رسالته: "فلله درك ودر ما به ألمعت، وما قربت من فنون المعارف ولا بعدت، ثم إنك حميت ضمار الشرع المحمدي وعضدته، وقطعت عنه ضرر الملحدين... وذلك بما قررتموه من أن الشريعة المطهرة لائقة بكل زمان، صالحة للحكم بها في كل أوان"[1].

ويختم سعد الله كل ذلك بالقول "نميل إلى أن الأمير لم يستفد من حضارة الغرب إلا في مجال التسلح الذي كان في حاجة إليه لتحقيق هدفه من المقاومة وهو إخراج الفرنسيين من الجزائر لذلك قرروا قصم ظهره، قبل أن يتقوى عليهم ويطردهم من البلاد"[2].

الأمير وبعض رجالات عصره:

إن الأستاذ سعد الله في دراسته لشخصية الأمير عبد القادر عبر كتاباته المختلفة وجدناه جد حريص على إبراز مختلف أوجه شخصيته، وكذا سعيه الحثيث لدراسة هذه الشخصية في إطار المحيط الذي عاش فيه، بدأ من المحيط الجزائري الذي كان يعتبره وطنه الصغير الذي يجب الدفاع عنه بالنفس والنفيس كما رأينا ذلك سابقا، مرورا بالدائرة المغاربية التي برزت بشكل واضح في لجوءه المتكرر إلى الأراضي الغربية خلال فترة مقاومته للاحتلال الفرنسي وهذا ابتداءا من سنة 1841 عندما كانت تضيق به الأحوال داخل التراب الجزائري فمثلا خلال بدايات سنة 1842 عندما "أحس الأمير بتضييق الخناق عليه ومطاردته

---

[1] نفسه، ص: 106.

[2] نفسه،

شخصيا فعبر الحدود إلى المغرب، وبعد أن جند عددا من القبائل المغربية دخل بهم الجزائر وحارب الفرنسيين من جديد ..."[1].

ويقول الأستاذ سعد الله في موضع آخر في إطار دراسة الأمير في الدائر المغربية "ولكن دخول الأمير إلى المغرب وعودته إلى الجزائر لضرب العدو، وضرب أنصاره على الحدود المغربية ثم اجتيازه للمغرب من جديد، كل ذلك ... جعل المغرب يتورط في حرب التحرير الجزائرية بقيادته ... ورغم ضغط الفرنسيين ... على السلطان لكي يبعد الأمير ويكف عن مساعدته، فإن السلطان لم يفعل، خوفا كما يقول معظم المؤرخين من ثورة شعبية داخلية ضده لأن الشعب المغربي أصبح ينظر إلى الأمير على أنه قائد حركة الجهاد ليس في الجزائر فحسب بل في المغرب أيضا ..."[2].

ثم تأتي الدائرة العربية الإسلامية أخيرا "فقد كان الأمير طائر الصيت كمجاهد وحيد تقريبا في العالم الإسلامي وكان ينظر إليه أنه من عظماء المسلمين في ذلك العهد سواء في المغرب أو في المشرق، حتى أنّ أمير الحجاز قال عنه عندئذ أنه لا يوجد من كان يخدم الإسلام سوى الأمير عبد القادر وشمويل الداغستاني ..."[3].

والسؤال المهم الذي ينبغي طرحه هنا هو كيف تناول الأستاذ سعد الله شخصية الأمير وسط ذلك العدد الهائل من الشخصيات والساسة الذين عاصروا الأمير وكيف كانت علاقة بعضهم بالأمير؟.

إنّ أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية الجزائرية التي عاصرها الأمير بل تزامن حراكها السياسي والعسكري مع حراك الأمير عبد القادر، الحاج أحمد باي قسنطينة الذي سبق لنا استعراض علاقة الأمير عبد القادر به في الصفحات السابقة، إلى جانب حمدان بن عثمان خوجة الذي برز بشكل قوى على المسرح السياسي الجزائري تزامنا مع بدايات الحراك العسكري للأمير عبد القادر، ولقد عمد الأستاذ سعد الله إلى الربط بين هذين الرجلين في العديد من كتاباته وكانت البداية مع أطروحته للدكتوراه (الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930) حيث كتب على هامش الصفحة 44 "ليس لدينا الوثائق التي تخبرنا ما إذا كان هناك اتصال بين الأمير عبد القادر وزعماء حزب المقاومين ؟ **–ويعد حمدان بن عمان خوجة أبرز هؤلاء الزعماء–** إننا نعلم أن خوجة كان يدعو إلى انتخاب (أمير) جزائري في برنامجه وهنا يجب علينا أن

[1] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (دار الغرب الإسلامية، بيروت–لبنان 2005)، ج1، ص: 259.

[2] نفسه، ص: 261-262.

[3] نفسه، ص: 237.

نشير إلى أن خوجة كان قد التقى أحمد باي كوسيط بينه وبين الفرنسيين للتفاوض فيما بينهم، ويقوم سعد الله يطرح تساؤلات في غاية من الأهمية وهي تساؤلات تحمل بداخلها أبعادا سياسية كثيرة فيقول سعد الله "هل كان هناك أي اتصال بين الأمير عبد القادر وخوجة؟ أي أمير كان في ذهن خوجة: الأمير عبد القادر، أو أحمد باي أو شخص آخر؟ إنّ الوثائق التي بين أيدينا لا تجيب على هذا السؤال".

ولقد قام الأستاذ سعد الله بعقد مقارنة رائعة بين أفكار الرجلين في أطروحته للدكتوراه في الصفحة 69 و70 حيث يوحي للقارئ أنّ حمدان بن عثمان خوجة قد دافع عن الكيان الجزائري سياسيا ونظريا أمّا الأمير عبد القادر فقد دافع عنه عسكريا وفعليا، إذ كتب عن حمدان خوجة يقول بأنّه يعد تقريبا أول جزائري يدافع عن الكيان الجزائري ويقدم له تعريفا حديث "فهو عنده عاطفة شهامة (لدى الجماعة الجزائرية) تحركت عندما أصبحت تشعر بالاستبداد من أمّة أجنبية" ويذكر أيضا أنّ حمدان خوجة أقام فكرة الكيان الجزائري في علاقته مع الكيان الفرنسي على الاختلاف في الدين واللغة، والعادات والتقاليد فالكيان الجزائري بناء على رأيه له حق الوجود الحر "حرا مستقلا" بوسائل ديمقراطية "الانتخابات" تعتمد على الإسلام والليبرالة العربية.

أمّا الأمير عبد القادر في هذا المجال فإنّ الأستاذ سعد الله يقول أنّ الأمير عبد القادر عندما خاطب الجزائريين قائلا:" إنّكم الآن تحت رحمة رؤي، يقاضيكم رومي، ويدير شؤنكم رومي.. إنّ يوم يقظتكم قد حان هبوا جميعا عند سماع صوتي" كان في الحقيقة يثير حماسهم ضد الأجنبي، لكي يوحدهم كأمّة تخت زعامته، ويطرد المعتدين الذين "أهانوا مساجدكم...وأخذوا أراضيكم...واستفزوا أعراض نسائكم، فإنّه كان يحاول (إيقاظ) أمّته وليس (خلقها) غير أنّه كان واعيا لضعفها، ولذلك حاول أن يدعم عواطفها بالتركيز على الإسلام والأرض والحرية والشرف.

ويقول الأستاذ سعد الله إنّ هذين الرجلين يختلفان عن بعضهما البعض فحمدان خوجة آمن بفكرة القومية الحديثة بمعناها السياسي اللاديني، أمّا الأمير عبد القادر فقد كان تقليديا في تفكيره، فالقومية في نظره تقوم على الدين والبطولة والاقتصاد– والعاطفة وتتحقق عن طريق القوّة العسكرية، ولكنّ الأستاذ سعد الله يستدرك كلّ هذا ليقول عن الرجلين أنّهما كانا زعيمين "وطنيين متطرفين في تناولهما للقومية وكلاهما مات في المنفى، فكلاهما فشل في برنامجه القومي".

وعاد الأستاذ سعد الله بعد ذلك إلى الحديث عن الرجلين في مكان آخر من كتاباته الكثيرة وتحديدا في المحاضرة التي ألقاها في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي المنعقد بالجزائر في

صيف 1972 وأعاد نشرها في كتاب منطلقات فكرية تحت عنوان (نماذج من التفكير التقدمي عند بعض الجزائريين) حيث خصص فيها لكلّ من الأمير عبد القادر وحمدان خوجة فقرتين كاملتين (أنظر الصفحات من 74 إلى 79)، حيث خلص إلى نتيجة مهمة، وهو أنّ مساهمة حمدان خوجة كانت نظرية إمّا الأمير عبد القادر فكانت عملية، إذ أنّ حمدان خوجة نادى بضرورة جلاء الفرنسيين عن بلاده، وندد بالاستعمار الأوروبي والتعصب المسيحي ضد المسلمين ودافع عن التشريع الإسلامي وأظهر سماحته وتسامحه، وطالب المسلمين بوجوب اليقظة ونبذ التعصب والأخذ بأسباب الحضارة والعلم ولو من الفرنجة لأنّ الشرع في نظره لا ينافي ذلك بل يوجبه، أمّا الأمير عبد القادر الذي كان دوره عملي تطبيقي فيقول عنه الأستاذ سعد الله إنّه ساهم عمليا في تدعيم ونهضة العالم الإسلامي. فقد ضرب المثل في الجهاد والصبر والدفاع عما اعتقد أنّه الحق، كما أنّه ضرب بالمثل عن البناء فلم يرفع سيف الجهاد ليحطم ولكن ليبني، ولذلك وضع دعائم دولة عصرية وفرّ لها كلّ وسائل التقدم والنمو كما أنّه برهن على شدّة تسامحه وتساميه عندما تدخل لإطفاء الفتنة سنة 1860.

ولقد عاد الأستاذ سعد الله مرّة أخرى للتفصيل في هذه النقطة أي العلاقة الفكرية والسياسية الموجودة بين الأمير عبد القادر وحمدان خوجة في دراسة أخرى كتبها سنة 1966 وهي في الأصل محاضرة ألقاها في جامعة الجزائر في 25 جوان 1966 تحت عنوان (الجزائر والقومية العربية) وأعاد نشرها في كتابه (منطلقات فكرية) وهي تحتل الصفحات من 109 إلى 120.

أمّا على الصعيد المغاربي فيمكن لنا الوقوف عند شخصية خير الدين باشا التونسي صاحب كتاب (أقوام المسالك) الذي بث فيه أفكاره الإصلاحية سنة 1867 والذي كانت له مراسلات كثيرة مع الأمير عبد القادر، ويقول الأستاذ سعد الله أنّه نظرا لقيمة الأمير الجهادية والعلمية في المشرق فقد أهدى إليه خير الدين نسخة من كتابه (أقوام المسالك) ومعها خطاب خاص. فقام الأمير عبد القادر بالردّ عليه برسالة شكر وتهنئة بصدور الكتاب مع عبارات الإعجاب بما جاء فيه من أفكار ودفاع عن الإسلام.

ويقول الأستاذ سعد الله أنّ الأمير عبد القادر قد نظر عند هذا الكتاب على أنّه كتاب يبهر العقول لتناوله "فنون المعارف"، "وقضايا المعقول والمنقول، فاتفقت القلوب على تفضيله" كما أنّ الأمير أعجب بالكتاب أيضا لأنّه دعى إلى ضرورة الأخذ بأسباب الحضارة الغربية فيما لا يخالف قوانين الشريعة.

ويذكر الأستاذ سعد الله أنّ العلاقة بين الرجلين لم تتوقف عن هذا الكتاب وما قال بشأنه الأمير عبد القادر، بل تجاوزته إلى قيام الأمير بمهاداته أنّه بتحف دمشقية ثمينة عندما كان وزيرا أعظم باسطنبول وأرفق الهدية بخطاب وقد ردّ خير الدين بالشكر ومدح خصال الأمير[1].

وأشار الأستاذ سعد الله أيضا في كتاباته المتعددة والمختلفة عن الأمير عبد القادر إلى علاقة هذا الأخير بالشيخ الإمام محمد عبده، وهي العلاقة التي نشأة بينهما عندما كان هذا الأخير مقيما في بلاد الشام واقترن ذلك مع إطلاق سراح الأمير عبد القادر من السجن، حيث يقول الأستاذ سعد الله أنّه ربما يكون قد التقى به الأمير عبد القادر في دمشق بسوريا عندما نفي إليها الشيخ الإمام محمد عبده بعد فشل الثورة العُرابية في مصر سنة 1882، أي قبل وفاة الأمير عبد القادر بسنة واحدة فقط، ويقول الأستاذ سعد الله أنّ في كتابات محمد رشيد رضا ما يدل على إعجاب الشيخ محمد عبده بشخصية الأمير عبد القادر ودوره في الحياة المعاصرة عندئذ، ويذكر الأستاذ سعد الله أنّ رشيد رضا روى أنّ الشيخ عبده كان يذكر له رجالا من أصحاب المزايا الكبير، الذين إذا ماتوا لا يخلفهم أحد منهم في العالم الإسلامي "المصاب بالعقم"، والأمير عبد القادر عند الشيخ الإمام عبده من أولئك العظماء الذين لم يخلفهم غيرهم[2].

ويشير الأستاذ أبو القاسم سعد الله أنّ محمد رشيد رضا يذكر أنّ الشيخ محمد عبده قد كتب عددا من الرسائل إلى الأمير عبد القادر، وأنّ مخاطباته له قد كثرت فكانت طورا في رسائل الإصلاح وطورا في رسائل الوداد وجاء في أحد هذه المخاطبات ما يدل على تكرار المراسلة بينهما بعد اللقاء، وعلى التقدير الكبير الذي يحمله الشيخ عبده للأمير، كما يدّل على وجود "أسرار" بينهما يرمز إليها الشيخ رمزا، كقوله:" ورجائي ألاّ يزايل فكرك ما تفارقنا عليه وسبق الكلام فيه مرارا...وأن يردّ لي من سيادتك ما يبشر لي بسلامة حالك ومجمل الحاصل من سعيك".

نهاية مقاومة الأمير عبد القادر بين الاستسلام والتسلم:

سنحاول في الأخير الوقوف عند نقطة حساسة جدا أسالت الحبر الكثير عند البعض ويتحاشاها البعض الآخر بكلّ حذر والسؤال الجوهري الذي ينبغي طرحه عند تناول هذه القضية: هل ما حدث في 23 ديسمبر 1847 للأمير عبد القادر هو استسلام؟ الأستاذ سعد الله يفضل دائما استعمال مصطلح من

---

[1] أبو القاسم سعد الله:أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (دار الغرب الإسلامية، بيروت، لبنان، 2005)، ج4، ص 168-169.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005)، ج5، ص542-543.

اختراعه وهو (التسليم) ولكن دون شرحه لنا وأول ما استعمل هذا المصطلح كان في أطروحته للدكتوراه واكتفى بالقول في الصفحة 46 الأمير عبد القادر وجد نفسه عشية 23 ديسمبر 1847" محاطا بالنار من المغرب (التي لم تعد محايدة) وبأسنة الرماح الفرنسية، وبوحشية الصحراء من الجنوب لذلك لم يجد بدا من التسليم إلى الجنرال لامورسيير .... على شرط أن يكون هو وأتباعه أطراف في اختيار منفاهم".

والشيء الملاحظ أنّ الأستاذ سعد الله لم يتوقف كثيرا عند هذه القضية وبدون شك، يعود ذلك إلى أنّه رأى أنّ الوقوف عندها مطولا لن يقدم ولن يؤخر في القضية شيء ولكن الذي وقف عنده مطولا هو تركيزه في الجزء الخامس من تاريخ الجزائر الثقافي على قضية في غاية من الأهمية لها علاقة مباشرة بهذه العملية أي عملية التسليم، وذلك من خلال تساؤل ذكي جدا فهل صحيح أنّ الأمير قد تخلى عن السياسة ولم يعد يفكر في الجزائر وشعبها بعد هزيمته وسجنه؟ ويجيب قائلا:" من العبث أن يعتقد المرء ذلك فالأمير الذي قضى سبع عشرة سنة حاملا السلاح من أجل دينه وشعبه وقضيته، لا يمكن أن ينسى كلّ ذلك لمجرد أنّه أصبح خارج الحدود، أو أنّه وعد نابليون بعدم دخول الجزائر، وقد رأينا أنّه لم يتعهد بعدم رفع السلاح، كما زعمت الدعاية الفرنسية، ولم تخرج من فمّه أو قلمه عبارة أنّه "صديق فرنسا، وإنّما هي الكتابات الإعلامية التي كان الفرنسيون في حاجة إليها للتأثير بها على الجزائريين الذين ظلوا متعلقين به"[1].

ونسجل في آخر هذه الوقفة أنّ الأستاذ سعد الله لم يقتصر حديثه عن الأمير عبد القادر فقط بل توسع هذا إلى تناول إخوته وأبنائه وحتى أحفاده في العديد من الدراسات والأبحاث، وخاصة أولئك الذين كان لهم نشاط سياسي مشهود في الجزائر في العقود التالية لهزيمة الأمير عبد القادر سنة 1847، ووفاته بدمشق سنة 1883، ويأتي على رأس كلّ هؤلاء حفيده الأمير خالد الذي خصّه الأستاذ سعد الله بكتابات عديدة وكثيرة.

[1] نفسه، ص 547-548.